اللغة والثقافة بين العوربة والعولمة

د. كمال بشر(*)

يقرر الدارسون أن هناك خمسة عناصر أساسية يمكن اتخاذها معيارا لتصنيف البشرية إلى أمم ولوضع الفوارق بين هذه الأمم وتعيين الخواص المميزة لكل منها. هذه العناصر هى: الجنس المشترك (أو الأصل) والدين والقومية واللغة والثقافة. ولكل من هذه المعايير أو القوميات دور بارز فى تشكيل الهوية وتماسك البناء تماسكا يميزه من غيره. وللغة والثقافة – بوجه خاص – دور بارز فى هذا التصنيف والتحديد؛ إذ هما بمثابة المرآة العاكسة لكل أنواع النشاط الإنسانى فى هذه الأمة أو تلك وهذا المجتمع أو ذاك، وهما فى الوقت نفسه، بمثابة المرشد الذى يمكن أن يؤكد هذا التفريق أو ينفيه.

ما اللغة؟

هناك مجموعة من الآراء فى تعريف اللغة وبيان مفهومها، وفقا لرؤية كل دارس وهدفه من الدراسة، ومنهجه فى البحث والتحليل. ولكنا هنا نشير إلى مفهومها العام الذى يأخذ دورها العملى الواقعى فى المجتمع المعين، والذى يميز مجتمعا من غيره، ويعين خواصه، ويحدد موقعه فى طوفان البشرية.

اللغة بهذا المفهوم الذى بيّناه أداة تواصل، وسبيل تبادل المنافع وقضاء المصالح بين أفراد المجتمع. يتكلم الإنسان تحقيقا لخاصة الإنسانية فيه، وهذا يعنى أنه اجتماعى بطبعه؛ أى متكلم بطبعه. ويتكلم الرجل العادى، فى أغلب حالاته وملابساته الحياتية، ليشبع اشتياقه إلى الاجتماعية،

---

* أستاذ العلوم اللغوية، والأمين العام لمجمع اللغة العربية بالقاهرة.

ويلبى نزعته إلى العيش فى جماعة. إن اللغة أهم مقوم من مقومات بناء المجتمعات، تربط الأفراد بعضهم ببعض، وتضعهم على درب موحد من الرؤى والاتجاهات، فيقوى البناء وتتماسك لبناته، ويصير سكنا لهم وعنوانا لهويتهم وشخصيتهم. وكما تتغير المجتمعات وتتعدد كذلك تختلف اللغات وتتنوع. وقد تطغى لغة على أخرى أو تسيطر عليها. ومن ثم يحرص المخلصون من هذه الأمة أو تلك على رعاية لغتهم وحمايتها من الذوبان أو الضياع، حماية لقوميتهم وتأكيدا لذاتيتهم؛ إذ اللغة هى الأساس الذى تتبنى عليه سائر المقومات القومية الأخرى ولا شك.

ما الثقافة؟

الثقافة لها عشرات من التعريفات، أهمها وأعمقها ينص على أن الثقافة خاصة إنسانية، وهى بناء مركب من لبنات معرفية تربوية واجتماعية وبيئية.. إلخ، ولها جانبان: مخزون عقلى وآخر سلوكى. المخزون العقلى يُعنى به المثاليون أو الفلاسفة وأضرابهم. أما الجانب السلوكى فهو ما يشغل بال المصلحين المتعاملين مع الواقع، بغية الإرشاد والتوجيه إلى ما يليق بنشاط الإنسان ومسئوليته وموقعه فى مجتمعه. ونحن من جانبنا نميل إلى هذه النظرية الواقعية، حتى لا ندخل فى متاهات الحوار والمناقشة غير العملية التى لا تخدم الرجل العادى أو تمنحه فائدة عملية.

هذا بالإضافة إلى أننا لا ندرك المخزون العقلى، ولا نعرف أبعاده ومحتوياته، فى حين أنه من السهل علينا أن نحكم على الرجل بأنه مثقف أو غير مثقف بتتبع سلوكه فى الحياة، وأنماط هذا السلوك. ومن هنا كان تعريفنا للثقافة بأنها "أنماط من السلوك تتمثل فى كيفية تعامل المرء مع ربه ومع نفسه ومع ما ومن حوله فى مجتمعه الصغير أو الكبير على حد سواء".

نقول هذا، ونختار هذا التعريف بالذات؛ لأن المخزون الثقافى العقلى

– مهما كان ثريا غنيا – لا قيمة له ولا فائدة ترجى منه ما لم يترجم عمليا في صورة سلوك أو إنجازات أو تحمل المسئوليات والوفاء بقيم الإنسان ومبادئه، بوصفه خليفة الله في أرضه كي يعمرها، ويجني ثمارها لصالحه وصالح رفاقه في مجتمعه.

فليس من النادر – والواقع يؤيده – أن يكون ذهن الواحد منا محشوا بلبنات المعرفة الثقافية وعناصرها، ولكنه – في الوقت نفسه – ينحو في سلوكه الاجتماعي نحوا مخالفا أو خارجا عن مقتضيات هذا المخزون المعرفي وكيفيات الإفادة منه.

قد يحكم على الرجل بأنه عالم في إطار تخصصه، أو متدين بحسبان أدائه لشيء من شعائر الدين ظاهريا، أو صانعٌ معروف في "ورشته"، أو تاجر مشهور في "دكانه"، ولكنه مع ذلك محروم من نعمة الثقافة الاجتماعية التي تنبئ عن خواص الإنسانية فيه، بكيفيات تعامله مع الآخرين. أي هؤلاء الرجال وأمثالهم قد يضلل أو يغش أو يكذب أو يحتال أو يخادع، أو يبتز أو ينافق ويرائي أو يسلك سلوكا معوجا لا يتسق بحال مع مخزونه المعرفي الخاص.

هذا الضرب من الرجال ليس مثقفا بحال في نظر الآخذين "الثقافة" بمفهومها السلوكي الواقعي، ونحن منهم.

وربما يقع الخلط بين مفهوم الثقافة ومفهوم الحضارة، وقد يُستعمل المصطلحان على ضرب من الترادف. وفي رأينا أن الثقافة والحضارة متداخلتان بل متكاملتان، لا انفكاك لإحداهما عن الأخرى: إنهما تمثلان كلا ذا وجهين.

ويعبر عن رأينا هذا الذي اخترناه مفكر عربي معروف هو الدكتور زكي نجيب محمود؛ يقول: "وبين الثقافة والحضارة ما بين الروح والجسد.

فالحضارة منشآت تراها الأبصار وتَمَسُّها الأيدى، أدت إليها ثقافة تسرى فيها بقيمها وأذواقها ومعتقداتها، سريان الروح فى الجسد، فترى الجسد نشاطا بفعلها ولكنك لا تراها".

وهناك – على كل حال – من يحاول التفريق بينهما تفريقا شكليا، حيث يطلقون المصطلح "الثقافة" على كل الأمور المعنوية (اللامادية) فى المجتمع، كالأديان والتقاليد والمعارف والآراء والأفكار والنظريات.. إلخ. ويخصصون المصطلح "الحضارة" لكل ما يتعلق بالناحية المادية التى تتمثل فى المخترعات والابتكارات والإنشاءات العمرانية والصناعية وكل مظاهر الإنتاج كالزراعة والتجارة، وغيرها من الحرف والصنائع التى يلجأ إليها الإنسان فى حياته لدعم كيانه وتحقيق أهدافه فى سهولة ويسر.

وهذا التفريق بين الحضارة والثقافة – وإن جاز قبوله نظريا – يعكر صفوَه وينفى مصداقيته أحيانا، ما يوجد من تشابك بين المظاهر المادية واللامادية (المعنوية). فالمخترعات والابتكارات من وسائل الاتصال مثلا كالراديو والتليفزيون و"الفاكس" وبناء الجسور والقناطر وإقامة التماثيل والإنشاءات المعمارية – كل هذه المظاهر المادية ما كان لها أن تتحقق وتخرج إلى حيز التطبيق الفعلى إلا باعتمادها على تخطيط فكرى مشحون بالنظر والتأمل وكوامن الخبرة والمعرفة.

فالأولى حينئذ أن نقول: إن "الحضارة" لا تعدو أن تكون تعبيرا واقعيا عن مستوى متقدم من الثقافة، إنها ثقافة معقدة: فهى؛ أى الحضارة من ناحية، أرقى درجات الثقافة. ومن ناحية أخرى تمثل الشكل المادى للثقافة. وهكذا يرتد بنا الأمر إلى تأكيد ما ذكرنا سابقا من أن "الحضارة" و"الثقافة" وجهان لشيء واحد، وإن جاز توظيف هذين المصطلحين لمجرد تعيين هذا الجانب أو ذاك، عند إرادة هذا التعيين. على أن بعض الدارسين يفلت من هذا

الحوار، ويخلص نفسه من هذا الجدل الشكلى، ويؤثر توظيف المصطلح "الثقافة" وحده، مطرحا المصطلح الآخر "الحضارة"، ويرى أن "الثقافة" ذات بعدين: أحدهما مادى ويشمل كل ما يصنعه وينتجه الإنسان فى حياته من أشياء واقعية ملموسة، كالسيارة والآلات والعدد والمنازل.. إلخ. والآخر لامادى ويتمثل فى كل مظاهر السلوك من عادات وتقاليد وأفكار ومعتقدات ومثل وقيم.

ومن التعريفات العامة للثقافة بمفوهمها الواسع (مع التركيز على خاصتها اللامادية) قول الدكتور حسين مؤنس فى كتابه "الحضارة": "ثقافة الأمة تعنى علمها غير الواعى الذى تتوارثه أجيالها وتسير به فى شئون حياتها؛ أى هى طريقتها فى الحياة، متضمنة اللغة أو اللهجة من اللغة ونظام إقامة البيوت وأنواع المأكل وطرق تحضيرها وطرق تناولها، والملابس والفرش والثياب وأشكالها، والأمثال والحكايات الشعبية وتصور أهلها للدنيا وموقفهم من الحياة وطريقة سيرهم فيها، وطرائقهم فى الصناعة والزراعة والتجارة والملاحة".

ويقرب منه أو يسير فى اتجاهه ذلك التعريف الذى قدمه "إدوارد تيلر" للثقافة، والذى – فى الحق – لا يزال أساسا لأغلب التعريفات التى قدمت إلينا فى هذا الشأن. يقول "تيلر" (وقد صاغ هذا التعريف سنة ١٨٧١م): "إن الثقافة هى ذلك المركب الذى يشتمل على المعرفة والعقائد والفنون والأخلاق والتقاليد والقوانين وجميع المقومات والعادات الأخرى التى يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا فى المجتمع".

ومهما يكن الأمر – سواء أخذنا بالتفريق أو عدم التفريق – فإن الثقافة هى الأساس، وهى قوام كل عمل أو نشاط حضارى بدون ثقافة، والتاريخ شاهد على ما نقول، فى القديم والحديث على سواء.

وربما يتساءل بعضهم: ما بالنا نشاهد أحيانا شيئا غير قليل من مظاهر الحضارة كتشييد الأبنية العالية ومد الجسور، وامتلاك الأجهزة الفنية الحديثة ذات الإمكانات العالية فى مجالات التكنولوچيا ونحوها فى ميادين العلوم والفنون – ما بالنا نشاهد ذلك وغيره من أمارات الحضارة فى بعض المجتمعات أو البلاد النامية، فى حين أنها خلو محرومة من أى بنية ثقافية من شأنها أن تعكس آثارها وملامحها على هؤلاء فى صورة صنع حضارى ذى شأن؟ نقول: نعم، قد يحدث هذا، وهو حادث وواقع بالفعل هنا وهناك فى بعض البلاد. ولكن هذا الواقع نفسه يقرر أن هذه المظاهر الحضارية ليست من ابتداع أهليها، وليست مردودا مباشرا لثقافتهم المحدودة الأفق، الفاقدة لطاقة التفاعل أو المحرومة من التفعيل. إنها – فى الحق – مظاهر مستوردة بالمال أو التقليد، أو الأخذ منها بنصيب جريا وراء مظاهر "الفوقية"، وإن كانت "فوقية" زائفة أو مقترضة إلى حين. إن هذه المظاهر الحضارية التى ليس لها قرار مكين فى أرض الثقافة المحلية، أشبه بالزهور الصناعية التى لا أصل لها ولا رائحة، وسرعان ما يمسها الهوان أو يصيبها الغبار، فتلقى – غير مأسوف عليها – عُرض الحائط.

العوربة:

مصطلح حديث استخدمه بعض الكتاب والمفكرين العرب فى مقابل "العولمة"، ويعنون به نمط الحياة العربية، سواء أكانت فكرية أم سياسية أم ثقافية أم اقتصادية أم اجتماعية. فهو مصطلح ذو خصوصية فى مقابل عمومية المصطلح "العولمة". وفى هذا المصطلح (العوربة) دعوة صريحة إلى العرب كافة، وتنبيه لهم على ضرورة الالتفاف حول مبادئهم وتقاليدهم ومقومات هويتهم، حتى لا تقتلع جذورهم ويتفرقوا بددا وسط هذا التيار الجارف الذى يسود العالم اليوم الذى من شأنه أن يقضى على الغافلين ويبدد

شملهم ويحيلهم أشلاء متناثرة، لا رابطة بينها ولا صلة من قريب أو بعيد. وقد بدت النذر صريحة، فى هذه الآونة بالذات، تشير إلى احتمال وقوع هذه الكارثة التى يحملها – وربما يفرضها – غبار ذلك الجو المظلم المنعوت "بالعولمة" أو ما نَسِمَه نحن "بالأمركة" التى – للأسف والحسرة – لا يدرك بعض العرب أبعادها ومراميها، ويميلون – قصدا أو عن غير قصد – إلى الانضمام إلى صفوف أجنادها الزاحفين إلى كل الأصقاع والبقاع.

وهذا الميل المقصود أو غير المقصود، قد بدت آثاره تظهر وتنتشر فى بعض الأجواء العربية، وبخاصة بين الشباب وغيرهم ممن خف محصولهم من الثقافة القومية، وتزعزع انتماؤهم إلى "العوربة" فى دقيق معناها لسبب أو لآخر. انجرّ هؤلاء وأولئك أو جرّوا أنفسهم إلى هذا البريق الخادع، وسلكوا أنفسهم فى مسيرته الثقافية والاجتماعية بدون وعى أو إدراك لما قد يلحقهم أو يصيبهم من خلط أو اضطراب فى نسيج قوميتهم وذاتيتهم الشخصية. ذلك أنهم جميعا بهذا الميل غير الواعى، قد أفسدوا هذا النسيج وشوهوه، بتشكيله من خيوط غير متآلفة فى المظهر والمخبر. ومن هنا بدا هذا النسيج محروما من التناسق، تنقصه الحبكة وجودة الهندسة التى تحيله كلا متكاملا ينبئ عن تكامل شخصية صاحبه وتعيين هويته.

يظهر هذا الخلط والاضطراب فى النسيج الثقافى والاجتماعى لهذه الطوائف جميعا فى كثير من أنماط سلوكهم وطرائق تعاملهم فى الأجواء العربية. وعلى القمة من كل ذلك سلوكهم اللغوى الذى تُفصح عنه ألسنتهم الملوّثة برطانات ولكنات أعجمية مغلوطة مخلوطة مبنى ومعنى. وهذا الخلط اللغوى بالذات هو الدليل الواضح المفصح عن الخلط والاضطراب فى مقومات الحياة الأخرى، ثقافية كانت أم اجتماعية أم اقتصادية.. إلخ. أو قل – فى أقل تقدير – إن هذا الخلط اللغوى من شأنه أن يقود هؤلاء وغيرهم

إلى خلخلة القوام العربى، ويهز كيانه، وربما يصبح أثرا بعد عين.

العولمة:

وقد أصبحت العولمة حقيقة واقعة منذ حائط بـــرلين عـــام ١٩٨٩م، وانقضاء عصر الحرب الباردة، وانهيار النظم الشيوعية فى أوربا الشـــرقية، وتفكك الاتحاد السوفيتى، واتجاه العالم كله نحو الاقتصاد الحر والاندماج فى الأسواق الكبيرة، والاستفادة من المنجزات العلمية والتكنولوچيا الهائلة التـــى ولدها النظام العالمى الحالى.

ويمكن تعريف العولمة Globalization، بأنها نمط مـــن الأنمـــاط الفكرية والسياسية والاقتصادية على نطاق العالم كله. ولأن الـــدعوة إلـــى العولمة، ولدت فى الولايات المتحدة، فمن المفترض – نظريا – أنها تعنـــى الدعوة إلى تبنى النموذج الأمريكى فى الاقتصاد والسياسة وفى طريقة الحياة بشكل عام، ومن ضمنها الثقافة والفكر والإعلام.

إن العولمة نفسها بآلياتها وتقنياتها ونظمها الثقافية قد تؤدى إلى ضياع مئات اللغات والثقافات أو إضعافها، وتدفع التطور العالمى فى اتجـــاه اللغـــة الواحدة والثقافة الواحدة واللسان الواحد.

وربما تؤدى العولمة إلى طمس الهويات والثقافات الخاصة والمحلية، وعلى رأسها جميعا اللغات، التى تمثل بالطبع الوعاء الأول للثقافة والمخزون التاريخى للتقاليد والأعراف والفنون والإبداعات والعناصر المميزة لها.

وتقول الأرقام الدولية والرسمية إن (تسعين) ٩٠ ٪ من العناصر التى تتحرك فى شبكة الإنترنت هى بالإنجليزية وحدها، و(خمسة وثمـــانين) ٨٥٪ من الاتصالات الدولية عبر الهاتف تتم بالإنجليزية أيضا، وإن أكثر من ٧٠٪ من الأفلام التليفزيونية والسينمائية بالإنجليزية، و(خمسة وستين) ٦٥٪ مـــن

برامج الإذاعات فى كل العالم بالإنجليزية.

إن ظاهرة العولمة فى عالم غير متكافئ وفى ظل فجوة كبيرة تفصل بين شعوب متقدمة غنية وشعوب أخرى نامية فقيرة، تحمل فى طياتها تهديدا بخطر ذوبان الثقافة تحت مظلة نمط ثقافى موحد، يضم منظومة من القيم يتم فرضها على بلدان العالم، وهو فى الغالب النمط الثقافى الغربى، أو قل – وهو الأدق – النمط الأمريكى. وهنا تصبح الثقافات الوطنية محل اختبار حقيقى، إما أن تحافظ على تميزها وتفردها وسط هذا الذوبان الثقافى المتوقع، وإما تتعامل مع هذا النمط وتتوحد معه فتفقد تميزها وتفردها، ومع مرور الوقت تذوب الهويات الحقيقية، وتطمس الملامح الذاتية، وذلك هو التحدى الحقيقى الذى يواجه العالم بأسره، وبصفة خاصة دول العالم النامى. ويكون السؤال الجوهرى أمام هذا العالم هو كيفية المواءمة بين متطلبات العولمة وضرورة الحرص (فى الوقت ذاته) على التمسك بخصائص الهويات الوطنية وثقافاتها.

تلك هى القضية الجديرة بالنظر وأوسع نقاش بين رجال الاقتصاد والسياسة والفكر والثقافة والإعلام فى العالم النامى على وجه الخصوص؛ إذ الكل فى قارب واحد.

ومعلوم أن هؤلاء الرجال (وغيرهم) قد اختلفوا فيما بينهم فى تقييم "العولمة"، وما يلفها من إيجابيات وسلبيات. فمنهم من يرى أن للعولمة إيجابياتها الكثيرة المتمثلة فى كسر الحواجز الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية، وهو الأمر الذى يعنى المشاركة وتبادل المنفعة بين الأمم فيما يتاح للجميع من فرص التقدم والنمو والازدهار، ومنهم من يرى أن العولمة إن هى إلا صورة جديدة للاستعمار الذى أصاب بعض الأمم، وأذاقها التخلف والهوان وفقدان القومية.

وفريق ثالث يأخذ العولمة على أنها "أمركة" ترمي إلى سيطرة النموذج الأمريكى، اقتصاديا وسياسيا وفكريا وثقافيا. ومن ثم تصبح أمريكا هى صاحبة القول الفصل فى كل ما يجرى فى العالم من أوجه نشاط الحياة، بحيث تصبح القطب الأوحد الذى تدور حوله كل الأمم، وتقدم له – طوعا أو كرها – كل ما من شأنه أن يدعمه ويزيد فى قوته، حتى يصبح العالم فى قبضة هذا القطب يسيّره كيف يشاء وأنى أراد.

وعندنا أن الرأى الأول ركز على ما سماه "إيجابيات" العولمة رأى متعجل، تنقصه دقة النظر وعمق التفكير فى حقائق الأمور وتعرف أصولها ومفهوماتها. ذلك أن هذه الإيجابيات ليست من صنع "العولمة"، بمفهومها الجارى تحقيقه الآن فى صورة تصرفات وسلوكيات أصحابها والداعين إليها، وإنما هى – بالأحرى – أمور "عالمية". إن ما ينعم به العالم الآن من مظاهر التقدم والازدهار فى بعض نواحى الحياة الاقتصادية والتكنولوجية والمعرفية والثقافية مثلا، قاسم مشترك بين الأمم، اشترك الجميع فى صنعها وابتكارها والأخذ بها وتطبيقها بالرضا والقبول، وإن بنسب متفاوتة. وشتان بين هذا النهج الإنسانى المشترك النابعة دوافعه من نزوع البشرية – بحكم طبيعتها – إلى التطور وإلى السعى حثيثا إلى كل ما يجلب الخير والنعمة والمنفعة للجميع من ناحية، وتلك الممارسات والتصرفات الحادثة بالفعل من طرف واحد، قصدا إلى السيطرة، وفرض النموذج الأوحد الذى يرمى إلى ضم الجميع تحت مظلته، شاء الناس أم لم يشاءوا من ناحية أخرى. فالنهج الأول نهج عالمى، طبيعته الاشتراك فى صنع المنفعة والتبادل فى الأخذ والعطاء، ولكن الموقف الثانى موقف وحدوى الأصل والنزعة، هدفه الأساسى والحقيقى السيطرة على مقدرات العالم والتحكم فى شئونه المادية والأدبية، وهذه هى "العولمة" فى صورة ممارسات فرسانها الآن، فى أقل تقدير.

إن "العولمة" بهذا الوصف اتجاه خطير ونذير مبين. ويزيد من خطورتها نهجها الاقصادى الذى بدأت به زحفها على العالم. ظهر هذا الزحف أولا فى صورة ما سماه أهل العولمة بالسوق الحرة، وتأسيس الشركات الاقتصادية والتجارية العملاقة التى اندست فى معظم بلدان العالم؛ وهو الأمر الذى من شأنه أن يزيد الأغنياء غنى والفقراء فقرا. وذلك واضح للعيان لا سبيل إلى إنكاره.

هذه السيطرة الاقتصادية لابد من أن تقود إلى السيطرة على كل اتجاهات الحياة؛ لأن المال قوة ضاربة، تحطم الصدور، وتقصم الظهور. وقد بدأت آثار هذه السيطرة تعمل عملها بالفعل فى حياة الناس هنا وهناك، وأخذت تنمو ويتسع ميدانها بالتدريج، حتى أصبحت أمرا مؤكدا، بل مفروضا فرضا من صناع العولمة، أو من القطب الأوحد – أمريكا.

إن ما يُدعى "بالعولمة" لا يعدو أن يكون "أمركة" خاصة. وهو ما يراه أصحاب الرأى الثالث المشار إليه سابقا. ذلك أن الذى يجرى فى العالم الآن من ممارسات أمريكية على الساحة العالمية، لخير دليل وأوضح برهان على ما نقول. تحاول أمريكا بكل ما لديها من قوة اقتصادية وسياسية وعسكرية أن تنفذ إلى كل أقطار العالم، وتخضعها جميعا تحت سيطرتها بالتحايل والتضليل أحيانا، وبالضغط أو القوة أحيانا أخرى.

ولم تقتصر هذه السيطرة على الجوانب الاقتصادية والسياسية، بل تعدتها إلى ما لم يكن فى الحسبان وقوعه أو صنعه. ظهرت آثارها بوضوح فى المجالات الفكرية والثقافية والاجتماعية، بل والتعليمية كذلك. إنها بقوتها الاقتصادية – حاملة على جناحيها القوة السياسية والعسكرية – هى التى جرّت هذه البلاد أو دفعتها دفعا إلى الدخول فى حوزة الأمريكان طمعا فى كسب منفعة أو خوفا من غضب القطب الأوحد. وغضبه أمر لا تحمد عقباه

فى العاجل أو الآجل.

ولقد نبهنا على هذا الخطر منذ أمد غير بعيد الـرئيس جمـال عبـد الناصر بحكمته وعمق بصره، حين أطلق صيحته المشهورة: "نرفض سيطرة رأس المال على الحكم". ومعلوم أن سيطرة رأس المال على الحكم تستتبع السيطرة على كل ما يدخل فى إطار هذا الحكم من جوانبه المادية والمعنوية على سواء.

إن هذه السيطرة الأمريكية لابد لها - إن عاجلا أو آجلا - مـن أن تهز أو أن تهدم الكيانات القومية والذاتية الشخصية للأمم، وتجعلهـا جميعـا توابع لا قوام لها، تسير يمنة ويسرة، حيث يسير الأمريكان أو يشاءون.

وخطورة هذا الاهتزاز وذاك الهدم للقوميات إنما تظهر أول ما تظهر ويقوى عودها وينجح تفعيلها، بالتوجه نحو اللغة والثقافـة. إنهمـا العمـاد والأساس الحقيقى للقوميات وما يلفهما من خصوصيات تُميّز قوما من قـوم، وتعين مواقعهم على الأرض، وتمنحهم الاستقلال بكل أبعاده وجوانبه، وبذلك يصبحون أحرارا لا توابع أو إمّعة لا حول لهم ولا طول فى دنيا الله.

والسؤال الآن: أين نحن؟ وما موقفنا من هذه المواجهة الشرسة؟ وماذا أعددنا لها لغويا وثقافيا؟

لموضوع اللغة والثقافة فى مجتمعنا العربى أهميـة خاصـة؛ إذ إن وضعهما أو بناءهما الآن يحتاج إلى نظر ودرس، كى نتعرف حقيقة الأمـر فيهما، بالعود إلى بناء هذا الجانب أو ذاك، ونكشف عن مكوناتـه، ونخبـر هندسته ودرجات التناسق والتكامل بين هذه المكونات.

ولعل أول ما نلاحظه فى هذا الشأن هو أن بناءنا اللغـوى والثقـافى بناء ينقصه التكامل والتجانس أو التآلف بين وحداته. ففى هندسته نشاذ، وفى جوانبه ارتفاعات وانخفاضات، وفى مادته أمشاج وأخلاط مـن العناصـر.

وفى عبارة موجزة نقول: إن هويتنا اللغوية والثقافية هوية مهزوزة، يشوبها نوع من التفكك والاضطراب، وضرب من التنافر والتناقض، ومن ثم يسوغ لنا أن نقرر أن ليست لنا هوية لغوية وثقافية موحدة. فاللغة العربية (وأعنى بها اللغة المنطوقة) تعانى من بلبلة الألسن وتعدد اللهجات والرطانات التى تحسب بالعشرات، بل بالمئات. وكذلك ثقافتنا القومية لم تنج من هذا التفرق والتمزق، ولم تسلم من الخلط وخلخلة البناء: فهناك ثقافة الخاصة، وخاصة الخاصة، وثقافة العامة وعامة العامة، وثقافة رجل الشارع وثقافة أهل الحرف والصناعات. وهذه الثقافات (وإن اتفقت فى بعض الثوابت، وما أقلها) تدفع بأصحابها إلى مسارات من السلوك متباينة، وتوجههم اتجاهات متباعدة، ومن ثم يصعب الالتقاء عند نقطة الهدف القومى بعامة؛ وأعنى بها فكرة الانتماء إلى الوطن المعين. وكذلك الحال بالنسبة للغة.

ونعود فنؤكد أن اللغة العربية الآن فاقدة الهوية فاقدة العروبة الخاصة. إنها أمشاج وأخلاط من الكلام: فصيحة نادرة الاستخدام ومملوءة باللحن والخطأ. ففى المدارس والمعاهد العامة تقدم بطريقة هوجاء، غير منضبطة المعالم، وتقدم موادها أحيانا باللغة العامية، بل إن النحو نفسه يقدم بهذه الطريقة أحيانا.

أما فى الجامعات فإن أصحاب الاختصاص فيها لا يلقون لها بالا، ولا يهتمون بها ولا بدروسها الاهتمام المناسب، حتى إن مؤلفاتهم وآثارهم المكتوبة محشوة بالخطأ والتجاوز، ونلاحظ الخلط كل الخلط فى تقديم المواد العلمية؛ كالطب والهندسة ونحوهما، حيث يُؤثر بعضهم التعامل مع الطلاب باللغة الأجنبية، ضاربين صفحا عن اللغة العربية، فى حين أنه من الأوفق والأسلم بل من الواجب تعريب اللسان باستخدام اللغة القومية.

إن أهمية التعريب فى الوطن العربى تكمن فى نقطتين مهمتين

تؤثران مباشرة فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية التى نطمح إليها: أولاهما، أن الطالب الذى يتلقى دروسه وتعليمه بلغة أجنبية يعانى صعوبة استيعاب المادة التعليمية وتمثلها إلا إذا كان هذا الطالب قد بلغ شأوا عاليا من الثنائية اللغوية، وهو أمر ليس فى ميسور الأغلبية الساحقة من الطلاب. والأخرى، أن التنمية العلمية والتكنولوجية تحتاج إلى قاعدة شعبية واسعة تتمتع بثقافة علمية وتقنية، وهذا ما يطلق عليه تعميم الثقافة العلمية، ولا يمكن إشاعة الثقافة العلمية ما لم تكن اللغة المستخدمة هى اللغة القومية التى يفهمها الشعب ويصبح تعلمها فى متناول الجميع.

والشارع العربى لا علاقة له بالفصيحة، وإنما هناك لهجات ورطانات فائقة العدّ والحصر.

وما بالك بالمدارس الأجنبية ومدارس اللغات؟

لا ننكر أن مدارس اللغات لها اهتمام بالتعليم بعامة وبالعربية أيضا. ولكن المشكلة تكمن فى سيطرة اللغات الأجنبية على الجو التعليمى هناك؛ وهو الأمر الذى يحشو أذهان التلاميذ بثقافات أجنبية، ويجذبهم نحو هذه الثقافات فتهتز شخصيتهم، ويضعف – بالتدريج – انتماؤهم إلى الثقافة العربية.

أما المدارس الأجنبية فهى بدعة جديدة من بدع التغريب أو العولمة، والمفروض ألا يلتحق بها تلميذ عربى، إنها خاصة بأهليها، ولكنا نعلم أن كثيرا من أبنائنا يلتحقون بها.

والأدهى والأمر أن القوم – مسئولين وغير مسئولين – يتسابقون الآن فى إنشاء مدارس ومعاهد بل وجامعات أجنبية، وقليل من هم يقبلون على إنشاء مدارس عربية قومية. وهو أمر لا ندرى سره، ولا ندرك مغزاه الحقيقى. الذى ندركه هو أن هناك ميلا غريبا فى معظم البلاد العربية إلى

"التغريب" الفكرى والثقافى، ودعوة "العولمة" أو "الأمركة" إلى الاستقرار فى بلادنا، أملا منهم – كما يدّعون – إلى السير فى ركب البلاد المتقدمة، وإلى تطعيم الناشئة بأفكار وثقافات "فوقية" أو متطورة من شأنها أن تأخذ بيد القوم نحو التقدم والرقى.

وما بالك أيضا فى هذه البدعة النافرة الناشزة التى تتمثل فى التسابق نحو إنشاء الجامعات الخاصة؟ جميل أن تنتشر دور العلم هنا وهناك خدمة للراغبين فى هذا النوع أو ذاك من التعليم، وفقا لاستعدادهم أو آمالهم فى تحصيل العلم، ومقبول أيضا هذا الصنع، تخفيفا عن كاهل الدولة، وتحقيقا لسياستها الرامية إلى إتاحة الفرصة لكل مواطن لأن يلبى رغبته فى التعليم الجامعى (ونحوه)، وأن ينوّع فى معارفه وخبراته العلمية، وفقا لقدراته وآماله.

ولكن ليس من الجميل إطلاقا، بل إنها لكارثة تعليمية تقود إلى كارثة قومية، أن يجرى العمل فى هذه الدور على الوجه الذى تسير عليه العملية التعليمية فى معظم هذه الدور، أو فى الأقل فى مجمل موادّها. يجرى التعليم، فى هذه الجامعات الخاصة أو فى أغلبها، باللغة الإنجليزية، على ضرب من التعسّف أو التباهى أو النظرة الفوقية إلى هذه اللغة أو إلى أصحابها، قادة العولمة أو الأمركة، على حدّ سواء. وكذلك الحال – بل أسوأ منه – ما تسير عليه بعض الكليات فى الجامعات القومية (الرسمية)، ككليات التجارة والحقوق من إنشاء أقسام لها، تدرس فيها المواد باللغة الإنجليزية أو الفرنسية. وإن المرء ليعجب من هذا الصنيع الذى يفرض فيه التعليم بلغة أجنبية على طلاب ليس لديهم من المحصول اللغوى الأجنبى ما يمكنهم من الفهم والاستيعاب لما يتلقون من موادّ. هذا من جانب، ومن جانب آخر، وهو الأدهى والأمر، أن هذا اللون من التعليم من شأنه أن يشكل شخصيات

هؤلاء الطلاب تشكيلا مضطربا غير سوىّ. ذلك أن هذه اللغات محشوة بثقافات أهليها واتجاهاتهم الخاصة، التى من شأنها أن تجرّ الدارسين فى هذه المرحلة إلى نزعات مختلفة غريبة عن البنية القومية، ومن ثم يختلط الحابل بالنابل، ويكون المحصول النهائى قومية مهزوزة البناء، متنافرة اللبنات، ولا ننسى فى هذا المجال أيضا ما يعنيه هذا الصنيع من التفريق بين أبناء البلد الواحد فى التثقيف العام والخاص على أساس مادّى محض، فى صورة تلك الرسوم المالية الكبيرة أو المبالغ فيها أحيانا التى تفرض على من يشاء من المحظوظين بالثراء ووفرة المال.

إن هذا الاتجاه – فى رأينا – اتجاه مغلوط يسيء ولا يفيد، يضرّ ولا ينفع، فى العاجل أو الآجل على حدّ سواء. ذلك لأن هذا الاتجاه سيفرز فى النهاية فئة أو فئات من الشباب ينزعهم فكريا وثقافيا من صفوف قومهم، ويحرمهم من فكرة الانتماء القومى التى هى أساس الوحدة والقوة وتأكيد الشخصية التى تحدد ملامح المجتمع المعين، وتمنحه موقعا ذا خصوصية على خارطة العالم. وهذا التحديد وتلك الخصوصية من شأنهما حماية القوم من التفرق أو الذوبان وسط الطوفان الجامح من الأفكار والاتجاهات التى ترمى – فى حقيقة الأمر – إلى التسلط على مقدرات الضعفاء وضمهم – شاءوا أم لم يشاءوا – إلى حظيرة الأقوياء، لا بوصفهم رفاقا أو شركاء فى خير الدنيا ونعيمها، وإنما بوصفهم تابعين أو أجَراء يعملون ويكدون لصالح الأسياد ذوى السيطرة والقائمين على أرض الله وحدهم، أهل العولمة أو الأمركة.

لسنا ضد معرفة اللغات الأجنبية وإجادتها فى مراحل التعليم المختلفة، بل إنه من الواجب والحتم علينا أن نجيدها بل أن نتقنها، ولكن على أساس أنها موادّ تعليمية، شأنها فى ذلك شأن الموادّ الأخرى. أما أن تكون اللغة

الأجنبية لغة التعليم فهو أمر غير مقبول قوميا وتربويا. هناك فرق بين تعلّم اللغة الأجنبية والتعليم بها: التعليم فى مراحل معينة أمر ضرورى فى زماننا هذا الذى نعيش فيه، لكسب المنفعة وإجراء الزاد العلمى، وتوسيع دوائر الاتصال بالآخرين، والإفادة مما يجرى فى العالم من معارف وخبرات فى مختلف العلوم والفنون، ولكن التعليم باللغات الأجنبية ضرره أكثر من نفعه، كما ألمحنا إلى ذلك قبلا.

ولسنا أيضا ضد تطعيم الأفكار والثقافات، على أن يكون هذا التطعيم موجّها نحو الطلاء لا البناء. البناء من الحتم أن يكون قوميا صرفا، ولا مانع مطلقا من تجويد هذا البناء أو صقله بالألوان المناسبة من هذا الطلاء.

نُعنى أولا بثقافتنا ولغتنا وعوامل تكوين شخصيتنا حتى نحدد موقعها، ثم ننصرف بعدُ – إن شئنا – إلى النظر فى هذا البناء لتعرف ثغراته ونواقصه أو ملامح ضعفه، فنعمل على علاج كل ذلك بطريق منضبط مرسوم.

وما أظن أن هذا النهج الذى قررناه واقع فى هذه الجامعات والكليات والمدارس الأجنبية بالذات. لقد فوجئنا فى الأيام الأخيرة بركام كثيف من الإعلانات فى الصحف كبيرها وصغيرها، تدعو إلى الالتحاق بمدرسة نعتوها "بالمدرسة الأمريكية"، وتشرح خواصها ومميزاتها ومسار العمل فيها. تنص بعض هذه الإعلانات على أن هذه المدرسة مناهجها أمريكية وضعها خبراء أمريكيون، ونظام العمل فيها – بما فى ذلك هيئة التدريس – يسير وفقا للنظام الأمريكى فى التعليم.

أتظن أن هذا النوع من التعليم يفرز لنا رجالا صالحين للقيادة وتحمل المسئولية العربية؟ أشك كل الشك فى تحقيق ذلك. والنتيجة واضحة تتمثل فى زلزلة البناء القومى، وتهدم قوائمه لسبب هيّن إدراكه، وهو التنافر

والتصادم بين ثقافاتهم واتجاهاتهم: قوم تربوا تربية قومية، وآخرون يسلكون فى الحياة مسلكا أمريكيا، وفئة ثالثة تحذو حذو الإنجليز أو الألمان.. إلخ. إنها لمشكلة قومية بالغة التعقيد، وتحتاج إلى وقفة متأنية لتدبير الأمر والتفكير فيه.

نعود فنقول ليس معنى هذا كله أننا نحاول حجب اللغات أو الثقافات الأجنبية أو اطراحها من الاهتمام. على العكس، نحن نحرص كل الحرص على تعرفها والاهتمام بها، ولكن بوصفها طلاء لا بناء. البناء لغة وثقافة عربية خالصة، والطلاء أية لغة أو ثقافة أجنبية أخرى.

وهذه الفوضى اللغوية والثقافية، أو ما نسميه نحن "التلوث اللغوى والثقافى"، واضح كل الوضوح الآن فى السلوك العربى وعند الشباب خاصة وهم رجال المستقبل وعماد الأمة.

إذن هناك مشكلة لغوية ثقافية قد تؤدى إلى ذوبان اللسان العربى وفقد هويته، فيصبح القوم أقواما ناشزة متنافرة. وهذا – فى دوره – يؤدى إلى الذوبان الثقافى والاجتماعى والاقتصادى والسياسى أيضا. كارثة حقيقية.

ماذا نفعل؟

نحتاج إلى تربية لغوية ثقافية عربية عامة شاملة: فى البيت والمدرسة والجامعة والمجتمع بأسره.

كيف؟

الطريق الأساسى فى هذا الأمر بالنسبة للغة فى رأينا هو ما أوجزناه فى عبارة واحدة، هو "اسمع وأسمع"، ومعناه إذا أردت أن تمرُن على لغة ما أو تحاول اكتسابها، فالنهج الصحيح هو أن نسمع اللغة التى تود تعلمها تكرارا ومرارا. وبالتدريج تستقر آثارها فى الذهن، وتستقرُ هناك خزينة

لغوية من مفردات وقوانين وقواعد. ويأتى بعدُ الإسماع، بأن تولد من هـذا المخزون باللسان الحىّ بصورة جهريّة. فيزيد الخزن وتنمو اللغة، وتصبح عادة ميسورة. ودليل ذلك موقع اللغة العامية بيننا.

نحن لم نتعلمها بالطرق التقليدية فى أى مكان، إنمـا تعودنـا علـى سماعها وخبرناها ومارسناها، وعلى منوالها نتكلم، دائمـا وأبـدا. وهكـذا أصبحت عادة لازمة، لا صعوبة فى استخدامها وفهم ما يُلقى إلينا بها.

وهنا يأتى دور الإذاعة والتليفزيون. وهو دور خطير ذو بال. إنـه لمن الحتم الاهتمام الكبير بخطاب هذا الجهاز ولغته ومستوى هـذه اللغـة. والمفروض أن تكون لغة الإذاعة والتليفزيون هى اللغة القومية، وهى العربية الفصيحة فى كل برامجها أو معظمها فى أقل تقدير. وذلك لسببين، أحـدهما عام والثانى خاص. أما الأول فيتمثل فى أهمية الأخذ بما يجرى العمل به فى معظم إذاعات العالم الواعى، المدرك لموقعه، الحريص على قوميته، باتخاذ كل السبل اللازمة لبناء هذه القومية وتثبيـت أركانهـا وتمييـز مقوماتهـا وملامحها، حتى يضمن كل قوم من هـذا العـالم الحفـاظ علـى هـويتهم وشخصيتهم الذاتية. ومن أهم هذه المقومات وأولاها بالرعاية والعناية اللغة القومية لكل قوم أو مجتمع. وأظننا – نحن العرب – فى أشد الحاجـة إلـى الأخذ بهذا المنهج الواعى الحصيف، وليكن البدء بالالتفاف حول اللغة العربية بمفهومها الصحيح، بالعمل على اعتمادها الأساس الأول والأقوم فى تحقيـق قوميتنا وتعيين ملامحها وخواصها المميّزة لها.

أما السبب الآخر – وهو مترتب على الأول وذو علاقة وثيقة بـه – فهو يتمثل فى ذلك الواقع اللغوى المرير، المهـزوز البنـاء، والمضـطرب الطلاء، المشوّه القسمات، المتشكل فى النهاية فى صورة مـا نسـميه نحـن "التلوث اللغوى" الذى يسود العالم العربى بأسره الآن.

فهناك فى هذا العالم خليط من أنماط الكلام العربى وغير العربى: لغة عربية يدّعى أنها فصحى أو فصيحة تستخدم قليلا أو نادرا فى مواقع معّينة، ولكنها محشوّة بالخطأ واللحن، وعامّيات ورطانات محلية عصيّة العدّ والحصر، لا يفهمها ولا يستوعب أبعادها إلا ذووها فى مجالهم الاجتماعى الضيق. هذا بالإضافة إلى أن هناك ميلا واضحا بين الأقوام العربية اليوم إلى إظهار نزعة التفوق والامتياز فى الوضع الثقافى والاجتماعى، يحشون كلامهم العربى المغلوط بألفاظ وعبارات وأساليب من لغات أجنبية، بدون حاجة أو ضرورة تسوّغ هذا "الغريب". إنها نزعة إلى التغريب أو العولمة أو الأمركة فى حقيقة الأمر.

سبيل الخلاص من هذا التغريب وذاك الخلط الشائن فى الخطاب اللغوى القومى المتمثل فى استخدام عربية مشوّهة وعامّيات ورطانات نافرة ناشزة، ليس بالأمر الهيّن، ولا يمكن تحقيقه أو إنجازه بمجرد التحذير أو النصح بالقول لا بالفعل.

إنها قضية قومية تحتاج إلى نظر واع مخلص بمحاولة وضع خطة شاملة، تنتظم الخيوط والخطوط النفسية والثقافية والاجتماعية والتربوية، كما تنتظم العامل الأقوم والأكثر فاعلية وتأثيرا، فى سبيل اكتساب اللغة التى نودّ اختبارها واعتمادها اللسان القومى الذى يجمع الكافة على كلمة سواء. ذلك العامل هو الأداء الفعلى المنطوق جهرا لذلك النمط المختار من الكلام. وهذا العامل هو ما يهمنا فى هذا المقام، فى حين أن العوامل الأخرى مازالت تنتظر البحث والدرس من أهل الاختصاص، وقد أشرنا إلى شيء منها فى كتابنا "اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم".

وهذا الأداء الفعلى سبيله المحاولة والتجربة، حتى يمرن صاحبه، ويحظى – عاجلا أو آجلا – بالخبرة والدربة، ويستقيم الأمر، ويصبح هذا

الأداء عادة أو ما يشبه أن يكون كذلك. فأين هذا المثل أو النموذج العربي الفصيح الصحيح الذى يمكن اتخاذه انطلاقة إلى المحاولة والتجريب؟

الواقع يقرر أن هذا النموذج لا وجود له إلا نادرا وفى مواقع محدودة وظروف ضيقة لا يسمع صوتها إلا قلة من الناس، وتبقى الجماهير العريضة معزولة عنها محرومة منها. وهنا يأتى دور الجهاز الخطير – جهاز الإذاعة – بوسيلتيها الراديو والتليفزيون. وهو جهاز دائم البثّ بكلام منطوق جهرا فى كل ظرف وحين، ويسمعه الكافة صغارا وكبارا ورجالا ونساءً، بقطع النظر عن أوضاعهم ومواقعهم الثقافية والاجتماعية والحرفية والوظيفية إلخ. وهذا الجهاز – بموقعه هذا الفريد – يحسب عندنا أهم عامل وآكده فى اكتساب اللغة وفى تنميتها وإشاعتها بين الناس، وفقا للقاعدة العامة التى وضعناها وأشرنا إليها سابقا "اسمع وأسمع".

ومن هنا كان من الضرورى – قوميًا وثقافيا – أن يلتزم فى خطابه هذا المبثوث ليل نهار باللغة العربية الفصيحة الصحيحة، تقديرا لموقعه، وتكريما للسامعين. والنتيجة الحتمية لهذا الصنيع المحدود عقد الألفة بين هذا النمط من الكلام الفصيح الصحيح والجماهير، وتعويدهم على الانتناس به، وقربه منهم، فتنصرف أسماعهم إليه، ويحاولون – إن عاجلا أو آجلا – النسج على منواله، وإن بالتدريج، حتى يمرنوا على اللغة العربية، ويخبروا قواعد أدائها جهرا، وفقا لما تلقت آذانهم وأذهانهم من الحصيلة اللغوية التى يطرحها عليهم هذا الجهاز.

هذا هو المطلوب أو المرغوب فيه من الإذاعة؛ إذ إنها – بكل المعانى – لسان الأمة ومنبرها العام الذى من شأنه أن يعلم ويصقل. وليس هناك ما هو أهم وأجدر من اللغة القومية للاحتفاء بها، ومنحها أكبر قدر ممكن من الرعاية والعناية من هذا التعليم والتثقيف والصقل، بل تعميق

الشعور والوجدان بالالتفاف حولها، وجعلها عادة مألوفة عند القوم بعامتهم.

ومع ذلك ليس هناك ما يمنع من التخفف فى الخطاب اللغوى الإذاعى أحيانا، باستخدام اللسان العامى المثقف المبرأ من الإسفاف ودونية الألفاظ والدلالات. لا مانع مؤقتا من هذا النهج فى بعض البرامج ذات الطبيعة الخاصة التى قد تقتضى البثّ بهذا اللسان العامى، على أن يكون ذلك بقدر محسوب ووقت محدّد معلوم، حتى يحين الوقت لإفساح الوقت كله دون استثناء للغة القومية، مستأثرة بالميدان كله، فهى صاحبته وهى أهله بدون شك.

وهناك على كل حال مصادر أو منابر أخرى من شأنها أن تعزّز دور الإذاعة فى رسالتها هذه ذات الأهمية البالغة.

المطالعة الجهرية مثلا فى دور التعليم تحسب – فى نظرنا – من خير السبل لتعرف اللغة واكتساب المهارة فى استخدامها. المعلم الناجح يستطيع أن يعالج أصوات اللغة وصرفها ونحوها وأساليبها ودلالاتها فى سهولة ويسر، كما يستطيع أن يعود تلاميذه على أداء اللغة أداء سليما إلى حد مقبول معقول. ذلك لأن الطالب يسمع النموذج من معلمه، ويحاول بعدُ أن يسمع نفسه وزملاءه وأستاذه. قد ينزلق لسانه أو يغمض بيانه، فيأتى دور المعلم فى التصحيح والتوجيه. وهكذا دواليك فى كل أوقات المطالعة الجهرية التى ينبغى أن تخصص لها أوقات معلومة كل أسبوع. ومن ثم نضمن بداية جيدة لتفعيل جهاز النطق عند الطلاب تفعيلا سليما، والأخذ بيدهم وإن بالتدريج، نحو التعامل مع اللغة واستيعاب قواعدها وخواصّها فى سهولة ويسر. وأخشى ما نخشاه أن يكون المعلم نفسه غير كاف لتقديم النموذج الصالح، كأن يكون جهاز النطق عنده مشوبا بشيء من العيوب، أو يكون محصوله اللغوى الفصيح الصحيح ضعيفا مضطربا أو مخلوطا. وهذه

بالطبع مسئولية وزارة التعليم فى اختيار معلم العربية وبخاصة من ينـــدبون منهم لأداء مهمة المطالعة الجهرية التى لا تكون ولن تكون إلا بلغة ســـليمة على المستويات كافة، وبأداء صوتى وإلقاء يترجم عمليًا خواص المادة مـــن حيث نظمها ودلالاتها.

ويا ليت المسئولين عن التعليم عندنا يوجهون اهتماما مناســـبا إلـــى جماعات الخطابة والمناظرة، على نهج ما كان يجرى عادة وتقليدا فى أيـــام الزمن الجميل الذى أثمر ثمارا طاب أكلها، وامتاز مذاقها، وسهل هضـــمها، مشكلا مادة لغوية فصيحة صحيحة بناء وأداء.

أما بالنسبة للثقافة فإن وضعها الحالى ليس بأوفر حظا من اللغة. إنها هى الأخرى مشتتة الأنحاء والجهات. ثقافة عربية سطحية لا تغنى فتـــيلا، وثقافة خليط من هنا وهناك فى كل مناحى الحياة. علوم منقولة بـــالنص أو بالترجمة المغلوطة. وفى الكليات العلمية يقع الخلط الكبير فى المحاضرات، حيث يحاضرون بالعربية ممزوجة بلغات أجنبية ولهجات عامية. كارثة.

كيف يحصل الطلاب وكيف يستوعبون؟

والثقافة عندنا نعنى بها أنماط السلوك بين الجماهير العريضة. ماذا نرى ويقع هنا وهناك؟ سلوك غريب عجيب. تقليد أعمى لكل أجنبى، صالحا كان أم طالحا، بدون تفريق أو وعى. فوضى فى كل مظاهر الحيـــاة، مـــن خروج عن التقاليد والأعراف، فى الملبس والمأكل والمشرب، والتجاوز فى التعامل بادعاء الحرية أو الانطلاق فى آفاق الدنيا الواسعة. وما الرأى فـــى اللافتات، وما يجرى فى السينما والتليفزيون من تمثيليات؟

ومظاهر اللهو والعبث بين الشباب بادعاء الترويح عـــن الـــنفس أو التجديد فى أنماط السلوك الموروثة، أصبحت عادات شبه مستقرة عند هـــذه

الطائفة من الناس. وقد أدى هذا كله إلى حرمانهم من سمات الأسوياء من البشر؛ من المحافظة على الوقت، وتحمل المسئولية، والوفاء بالأمانة في أقوالهم وأفعالهم.

إنها جميعا من آثار التغريب أو العولمة في الثقافة. ويبدو أن هذا التغريب له جذور ووجود منذ وقت غير قصير. أعنى ما جرى ويجرى من التقليد الأعمى للآخرين والنقل عنهم بدون وعى. استمع إلى هذا الذى يقوله بيرم التونسى؛ ذلك العربى الناقد الحصيف فى هذا الشأن. يقول ناعيا على المرأة العربية جريها وراء المرأة الغربية وإلحاحها على تقليدها والاقتداء بسلوكها، دون وعى أو إدراك لشخصيتها وهويتها العربية؛ يقول:

"كل شراب الست ما يقصُر عمره، تمنُه يزيد
تفرحْ لو تذهب بهْ نوبةَ وترجع به هرابيد
علشان تضمن تيجى الموضة تشترى غيرهُ جديد
ما أحلى إيديها وهى بترمى الخمسة جنيه لدافيد"

(لاحظوا هذه الإشارة الذكية الساخرة إلى اليد التجارية اليهودية، وهى يد تكسب معنويًا وتكسب ماديًا، مستغلة الزبون وبلاهته).

لنقرأ معا بقية الكلام:

أهل الموضة قالوا ضرورى تتعرّى الرجلين
وأهل الحشمة قالوا الواجب يتْغطوا الاتنين
ليه عرّينا وليه غطينا، حاجة ياربى تكيد
واهى غطتهم بشراب نايلون مش باين للعين

(إن بيرم ينعى على المرأة الشرقية استسلامها لموضة الغرب وتقاليعه، وتغذيتها لسوق اليهود التجارى. وهو المستفيد من هذا كله. ثم يستطرد إلى

بيان أثر هذا الافتتان بالغرب على نسيج المجتمع وعلى سياسته ذاتها).

وياريت بس الطبقة الراقية طالعة فى دى المطلوع
إلا بنت أم ازدحمد خشّت فى الموضوع
لازم تلبس رخره النايلون شالله تموت من الجوع
ولا راجلها يخون العهده ثم يروح فى حديد
آدى عقول إللى حيستولوا على مجلس نواب
من دلوقتى أدينى بفكر واحسب ألف حساب
خايف ييجى مدير الشركة يرشيهم بشراب
تمشى الحركة وسهم الشركة، عشرين ضعف يزيد

على الرغم من قسوة النهاية فى القصيدة فإن بيرم التونسى يرسم صورة لأبعاد الافتتان بالغرب والسقوط فى شباكه. إن هذا السقوط الإنسانى يتبعه انهيار المجتمع وسقوط لسياسته هى الأخرى، وخضوعها لمدير الشركة الخواجة.

رحم الله بيرم التونسى... أى عبقرى»[1].

وهذه أزجال شعبية أخرى تؤكد ما قررنا من أن النزعة إلى التغريب فى اللغة والثقافة لها جذور قديمة، وأنها استمرأت هذا التغريب، وأصبح عادة وتقليدا بدون انقطاع، بل أظنها صارت منهجا عامّا يحلو للجميع اتباعه، بدون إدراك لأخطاره وآثاره التى ربما تمتد إلى نحورهم، فتقضى على بنيتهم القومية وما تنتظمه من اللغة والثقافة، ويبقى مآلهم معلقا فى الهواء، محروما من الاستقرار، معرّضا للذوبان والضياع، وسط أعاصير العولمة أو الأمركة – إن شئت.

١- أحمد بهجت، صحيفة الأهرام ٢٢/ ٦/ ١٩٨٧م.

فهذا "حامد الأطلس" وهو زجال، كان نجارا فى أوائل الستينيات اشتهر بقصيدته التى يقول فيها: (جهاز حبيبى انطلبْ وباصنعه بإيدى). قال عنه الشاعر الكبير (أحمد رامى): "يمتاز فى أزجاله بصدق التصوير، وحسن التعبير. يتناول فى أزجاله صورا شعبية ومواقف وطنية وعاطفية فى لفظ سهل وأسلوب لطيف وروح خفيفة وأوزان مختلفة. كانت أزجاله مرآة صادقة تعكس نواحى كثيرة من حياة هذا الشعب المناضل. اخترنا له من ديوانه "صناع الربيع" هذه المقطوعة الانتقادية لطرافتها وموضوعيتها.

كلام مخلوط[1]

اللى فى فرنسا بيتكلم (باريسْيانى)
واللى فى إيطاليا.. كلامه كله طلياني
ومستحيل تلتقى فى انجلترا واحد
بيخلط الانجليزى فى كلامْ تانى

.....

واحنا لغتنا الغنية ضيقة بينا
مع إنها تكفى كوم أجيال بعدينا
مافيش داعى نلف الدنيا بلسانا
وفى جملة نجمع ما بين الهند واثينا

.....

"بونابرت" جه وانهزم وترك لنا "مرسيه"
وجه "كرومر" وقاله كلمتين بعديه

٢- من أزجال حامد الأطلس، نقله عنه الأبنودى، فى ملحق أهرام الجمعة ٢٠٠٢/٧/١٢م.

عادوا لبلادهم ما حدّش خدْ كـــلام عربـــى
واحنا كلام الغريب "مســـتيكة" نننـــدغ فيـــه

.....

ما سمعتش ابدا خواجه قال: " صباح الخير"
والهندى عمره ما قال لزميله: "يا منشـــير"
وعنـــدنا للأســـف تشـــبع كـــلام مخلـــوط
بينَا وبين بعض مـــش بينـــا وبـــين الغيـــر

.....

العلم يا شهم مـــش خلـــط الكـــلام بكـــلام
وكل حاجـــة لهـــا فـــى المعرفـــة أحكـــام
وإن كان دليل الثقافة (بون ســـوار مسْـــييه)
يبقى عليه العوض وعلـــى الثقافـــة ســـلام

وإمعانا فى النزعة إلى التغريب وتأكيد النظرة الدونية إلـــى الـــذات والفوقية إلى الآخرين، ما نلاحظه فى العقود الأخيرة من الزمن من أن بعض السيدات العربيات الحوامل يسافرن إلى أمريكا أو إنجلترا ليلدن هناك، حتـــى يكتسب الوليد (المحروس) جنسية فوقية لا عربية دونية. وهكذا ينسلخ القوم من أصولهم ويقتلعون جذور قوميتهم مُهرولين إلى صفوف العولمة.

وحقيقة الأمر أن العولمة هى أمركة سادت العالم طوعـــا أو كرهـــا، فمنهم من قبلها بنفسه ومنهم من فرضت عليه فرضا. وهى أمركـــة ثقافيـــة ولغوية وسياسية وعسكرية أيضا. ونقول: لم هذا الفساد والإفساد الذى جرى ويجرى للغتنا وثقافتنا؟ إنها قضية ذوبان لغوى وثقافى، ويبدو أن هذا الذوبان آتٍ فى القريب العاجل.

القضية ليست قضية أفراد من الناس. إنها تحتاج إلى نظـــرة قوميـــة سياسية علمية من الناحيتين اللغوية والثقافية، أو قل إن قضيتنا هذه تحتاج إلى تخطيط لغوى وتخطيط ثقافى وتخطيط روحى: كيف؟ الإجابة عند كل العرب مسئولين وجماهير.

ونختتم كلامنا بالتساؤل الآتى: لم كان هذا الفساد والإفساد الذى غشّى لغتنا وثقافتنا وغيرهما من السلوك فى الحياة والتعامل معها؟

هناك أسباب كثيرة منها:

١- النظرة الدونية إلى تراثنا ومقدراتنا وذواتنا.

٢- ضعف الانتماء القومى.

٣- التقليد أو النقل بدون وعى.

٤- اللامبالاة والتسيب والأنانية والنظرة الفردية.

٥- ذوبان الطبقة المتوسطة.

٦- ضيق مساحة الحرية.

٧- فقدان القدوة الصالحة، فى البيـــت وفـــى الشـــارع والمدرســـة والجامعة.

٨- السطحية فى التفكير والتعامل مع الأشياء.

ولكل هذه الأسباب من الخواطر والتأملات ما يحتاج إلـــى بحـــوث مستقلة، نأمل أن نأتى بشيء منها فى فرص أخرى بإذن الله.